قاهر العفاريت

قصة بقلم أحمد سويد

تململ الشيخ عبدالغفار بضيق ملحوظ، وهم بأن يرجم السماء بعتاب شديد اللهجة ، فلقد طالي اليوم جلوسه على المصطبة دون ان «يستفتح» بشيء يسر الخاطر ، ولو اقتصر الجدب على هذا النهار لهانت مصيبته، ولكن ربع الاسبوع كله لم يكن مرضياً بوجه من الوجوه، واذا كنت لا تصدق فهذا هو كشف الحساب:

لقد كسب نهار السبت ثلاث ليرات فقط استوفاها ثمن حجاب كتبه لفتى يصاب بداء النقطة ، ويشهد الله أنه اخذ هذه الليرات الثلاث حلالاً زلالاً، لأنه لم يدع شيئاً من علمه الا وافرغه في هذا الحجاب .

وكانت حصيلة الأحد فرخة بيضاء منقوشة الذيل يشعر بالامتعاض والضيق كلما رأى ديك جارته ام ابراهيم يلاحقها ويغازلها فلا تمتنع عليه، وقد حملها اليه شاب من المزرعة المجاورة أحب فتاة تكرهه ، وكاد حبه اليائس يؤدي به الى الجنون ، فجاءه يستنجد بعلمه وقدرته العجيبة على جمع القلوب المتنافرة ، فكتب له حجاباً وأوصاه ان يحتال على الفتاة فيسقيها منقوعه فاذا وفق الى ذلك فستذوب في هواه باذن الله .

وكان نهار الاثنين قاتمه المحصول : ثمنية عدس فقط ، لقد كان يجدر به الا يقبلها لان لعلمه كرامة يجب ان تصان، ولكن ما العمل ؟ وقد احرجته ام طعان احراجاً شديداً فهي جارة قديمة وقد هرعت اليه تطلب معونته ليحول دون الكارثة فزوجها يغامر بوقار شيبته وينشيء ، والعياذ بالله ، علاقات غرامية مع أرملة مشبوهة السلوك. وكان عليه ألا يردها خائبة ، فخربش لها بغير اكتراث ، كامتين للكره ، وأوصاها أن تدس قصاصة الورق في قبر مهجور، ولكن ضميره حاسبه على هذا الضرب من الغش، فسارع الى إراحة ضميره وقال لام طعان وهو يشيعها الى الباب :

– يا أم طعان، «يلي بتحطيه بالدست بيطلع بالمغرفة . »

ويظهر ان المسكينة لم تسمع ما قال ، إذ راحت تنط كبنت العشرين وهي تحسب أن الدنيا كلها اصبحت في خدمتها ، وانها وجدت اخيراً الحصرمة التي ستفقأها ، وترتاح، في أعين العذال والشامتين .

أما يوم الثلاثاء فقبحه الله من يوم ، جرّبه فيه الشيطان فانتصر عليه . وكيف لا يهزمه اللعين وقد جاءته حسنة البدوية في الصباح الباكر تلتمس لديه دواء لعقمها ، فهي متزوجة منذ خمس سنوات ، ولكن الله لم يسبغ عليها حتى الان نعمة الامومة .

لِمَ لا يعترف بصراحة أن تقاه المصطنع انهزم أمام هذه المخلوقة الطاغية التي تشتهيها كل جارحة من جوارحه ، ويسحره بشكل خاص ذلك الخال الحلو الذي يتكيء غنوجاً على خدها الوردي ؟

ولِمَ لا يعترف أيضاً أن رائحة الأنثى التي تفح منها مثيرة غاوية ، أخرجته عن وقاره في تلك الاصبوحة ، وانه نال جزاء تطاوله الفظ صفعة « خلخلت » فكه الأسفل ، وتركت في خده الأيسر أثراً لولا أن حنا عليه عليه شعر لحية الكث فاحتضنه وغطاه ، لانكشفت حقيقته واقتضح أمره بين الناس .

وأما عطاء اليوم ، يوم الاربعاء، فلم يزد عن أوقية زيت ، حلفت له « ام شنديب » أنها هي كل ما في بيتهم ، ورجته أن يتكتم لأن غضب السماء وعصا « ابو شنديب » سينصبان على رأسها اذا شاع أمر السرقة وتسرب الى سمع زوجها الذي هو اشرس من كلب عقور .

وأخذت شيخنا الرأفة فرقى إبنتها الصغيرة وأفهمها أنها مصابة بضربة عين فارغة ، وأمرها أن تعاق في غرة الطفلة خرزة زرقاء لرد الأذى ، ولم ينس أن يفهمها أكثر من عشرين مرة انه إنما يقوم بهذه الخدمة المجانية لوجه الله فقط ، لان اوقية الزيت لا تساوي حرفاً واحداً من تعاويذه الشافية .

***

ونهق حمار الشيخ معلناً ضيقه بالصمت ووطأة الحر ، فرد عليه الشيخ بتثاؤب طويل كسول ، ثم ازاح ساقه المعطوبة قليلاً ، ونقلها الى الظل ، وترحم على الماضي يوم كان سلطانه الروحي واسع النفوذ، رغم انه ليس شيخاً بالمعنى الصحيح، فلا يصاب أحد بالجنون أو الحب أو المرض إلا ويحمل اليه ، ولا تسرق دابة او خزانة في المنطقة كلها إلا ويهرع المنكوبون يتوسلونه ليطلق في أعقاب اللص أعوانه من ملوك الجن وعفاريت سيدنا سليمان ، فلا يرتدون اليه إلا وقد جروا السارق من ناحية ، واخذوه من انفه .

وكان يتدلل فلا يقيم « المندل » الا إذا رنت في كفه ذهبيات خمس « ام حصان » ، ومع ذلك فقد كان منزله يغص دائماً بالقاصدين وروائح البخور ، وبالباحثين عن طوالعهم ، ونوايا النجوم نحوهم .

وقد بدأ رزق الشيخ عبد الغفار يشح رويداً رويداً منذ قام في المنطقة بعض الزنادقة يشنون ضده حملة دعاوة ، ويتجنون عليه فيسمون علمه شعوذة ، وينشرون بين الناس الالحاد الذي تعلموه في مدارس كافرة، والعياذ بالله ، لم تتورع أبداً عن تلقينهم الرطانة الأجنبية .

وتؤذيه بشكل مباشر تلك الجولات الشهرية التي يقوم بها في المنطقة طبيب شاب تعلم في بلاد الأجانب يدعونه الدكتور شكرالله . قيل له إنه يلبس البرنيطة ويحف شاربيه ليبدو كالعذراء ، ويزعم أنه يشفي المرضى بغير اسماء الله الحسنى ، ولا يعترف بالتخريب الذي تنزله العفاريت باجساد العباد ، لأنه لا يؤمن بالعالم الخفي ، بل يتشدق امام الناس بكل وقاحة أن أسباب الامراض ليست الا جراثيم صغيرة لا يمكن ان ترى بالعين المجردة ، استطاع العلم ان يكتشفها وأن يهتدي الى طريقة ابادتها بالعلاجات الحديثة .

ويرتعد الشيخ عبد الغفار كلما ذكر تخريفات الدكتور شكر الله التي يتناقلها الناس مشككين ، ويشعر بشهية هائلة لتحطيم جمجمة هذا الشيطان المضلل ، أو خنقه اذا قدر له أن يراه .

« ولكن ما النفع ؟ فلسوف يظل هناك عشرات الملحدين يبثون سمومهم ويتفلسفون فينعتون بالشعوذة كرامات الصالحين . اللهم عفوك . لقد ظهر الفساد في الارض . وهذه إحدى الامارات التي لا تخطيء بان هذا العالم الجاحد قد شارف نهايته. »

لاك الشيخ عبد الغفار هذه الكلمات وهو يحاول النهوض من مربضه ويلاحظ ان الظل قد انحرف قليلاً عن معلف الحمار . ومعنى ذلك أن ميعاد القيلولة قد حل ، وعليه ان يرتاح ساعة او ساعتين ، ورزقه على الله الذي لا ينسى احداً من مخلوقاته . ولكنه كان ما زال يجالد نصف قنطار من اللحم المترهل ، ويستعين على الوقوف بعكازه الثمين المصنوع من خشب « الزعرور » ذي العقد الضخمة ، حين أقبلت « الرزقة » تمشي على اثنين، ووقفت امامه بتهيب، وقالت بلسان جمّال الضيعة ابو حسن الهرموش :

– يا سيدي . آل الدمروشي يرجونك ان تأتيهم على عجل لأن ابنهم

سلمان مريض ، وحالته لا تبعث على الارتياح .

وهرش الشيخ لحيته الناهية، ومسح بكمه الواسع العرق المتصبب من جبينه العريض ، وبعد ان اعلن تخوفه من السير في هذه الشمس المحرقة ، صارح الرسول بأنه سيقوم بهذه التضحية في سبيل آل الدمروشي ، ولكن هـــل سيقدر آل الدمروشي هذه التضحية يا ترى ؟

ولمعت عيناه ببريق خاص فهم الهرموش منه ان عليه ان ينقل هذا التساؤل الى المراجع المعينة، وان يفهم الجماعة بضرورة إكرام الشيخ اكراماً يكافيء تضحيته، ولم يجد مفراً من تطمين الشيخ بأنه سيقوم بما يمليه عليه واجب الاحترام والتقدير لعلمه وكراماته ، ولكنه يتمنى ان يتكرم عليه مولانا، كبركة منه، بحجاب قوي المفعول، يطرد عنه الاحلام الخبيثة، ويرد عن جله شر العيون.

***

القى الشيخ عبد الغفار نظرة عجلى على المريض الذي كان ينتفض ويهذي من شدة الحمى ، ثم انتحى بالأم الهلوع ناحية وهمس في أذنها :

– يا ام سلمان ... إنه مسكون . وقد يقضي قبل الصباح إذا لم يغادره العفريت الذي يتلبسه ، ويعذبه كل هذا العذاب .

فتهالكت الأم على قدمي الشيخ منتحبة :

– خذ كل ما أملك يا سيدي. خذ حياتي ، خذ نور عيني وأنقذ ولدي.

وسمع زوجها الضرير توسلها فأقبل على الشيخ يتلمس يديه ليقبلها ويغسلها بدموع عينيه المنطفئتين :

– انقذه يا ولي الله انقذه.

ولم يتلكأ «ولي الله» فهيأ مباخره، وهز مزهره ، واخذ يتمتم بأوراده وتعاويذه ، ويتثاءب ، ولكنه ما كاد يسمع صياح ديك مذعور ، كان ابو حسن الهرموش يطارده وراء البيت، حتى ادرك ان الجمّال الطيب القلب أبلغ الرسالة ، وان الغداء سيكون شهياً يسر الخاطر ، فرفع عقيرته وراح يستدعي ملوك الجن بصوت مرتفع متهدج ويسميهم بأسمائهم :

– يا شمروخ ، يا عمروش ، يا جرنفش يا طنفوش وسائر ملوك الجان ، استحلفكم بجاه الرحمن ، وباسم سيدنا سليمان أن تخرجوا هذا العفريت الشرير من جسد سلمان ابن وردة . اخرجوه والى الجحيم جروه .

وكرر الشيخ هذه الاستغاثة عشرات المرات، ولكن ملوك الجن الاحمر لم يستجيبوا – على ما يظهر – بالسرعة المطلوبة، فانتصب الشيخ منفعلاً، وراح يدور في الغرفة الضيقة ، ويدق مزهره ذا الخشاخيش بعصبية حانقة، ويرمق بطرف عينيه المريض الذي يتلوى في الزاوية، والام وبعض جاراتها اللاتي تحلقن حوله يبكين بصمت .

واخيراً، أطاع ملوك الجن اوامر الشيخ فأقبلوا يعرضون خدماتهم وأشرقت اسارير الشيخ عبد الغفار وهو يلقي عليهم التحية، ويصدر امراً مستعجلا بالاكثار من حرق البخور تكريماً لهم . ثم ما لبث أن أعقب امره المستعجل بسلسلة قصيرة من الاوامر المقتضبة، تقضي بأن تقفل النوافذ بأحكام، رغم الحر الشديد الخانق، وان تدنى المباخر من المريض، وأن يخرج الجميع من الغرفة بلا ابطاء.

ونفذت الاوامر بسرعة ، وخرج « ولي الله » وهو يمسح عرقه لاهثاً ، ويعلن حالة الطوارىء ، ويفرض الصمت على الحضور لمدة ساعة واحدة ، فابناء العالم الخفي معشر نفور – حسب تعبيره – يجفلون إذا سمعوا صوت انسي او نأمة آدمي ، ومن الضروري ان يتاح لهم الجو الذي يمكنهم فيه ان يؤدوا مهمتهم كاملة .

وهش الشيخ للديك الاحمر الذي فوجيء به ينتظره في فناء الدار، فوق بيدر شهي من الرز المعصفر ، تحف به آنية اللبن الرائب وتصطف حوله اطباق العسل الاشقر ، فتوجه نحوه، وهو يطمئن اهل المريض بلهجة الواثق :

– ارتاحوا ولا تجزعوا.. سيخرج العفريت من جسده صاغراً، وسيشفى حالاً بأذن الله .

***

كان كل ما حشد على المائدة قد «طار» باذن الله، حين جهر الشيخ عبد الغفار بالحمد لمقسم الارزاق ، واعلن اكتفاءه وشبعه، وسروره ايضاً، لان سلمان قد ارتاح إذ لم يعد يسمع له منذ نصف ساعة انة او حركة . ثم التفت الى أم سلمان وقال لها ، وهو يغالب التجشؤ ويشد على كرشه الذي يكاد ينفلق :

– باستطاعتك الآن ان تتحققي من ان المحروس قد ارتاح، وان العفريت الملعون الذي سكنه ، قد طرد شر طردة .

فاندفع الجميع الى غرفة المريض ليشاهدوا المعجزة ، وانحنت امه فوقه تهزه بلهفة وتناديه بحنان :

– سلمان حبيبي ، سلمان ولدي .

ولكن سلمان كان كالخشبة الباردة لا حياة فيه ولا رمق .

... وطغى صوت الشيخ على النحيب والعويل يعظ :

– اذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون . لقد خنقـــه العفريت اللعين قبل ان يخرج منه فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

وكانت نظراته تصفع « ابو حسن الهرموش » بغلظة ، وتطالبه بالحاح ان يفهم « الجماعة » ليقدروا تضحيته ، وينقدوه بدل أتعابه ، فهو مستعجل وعليه ان يعود الى منزله قبل غياب الشمس ، فقد يكون هناك زبائن آخرون ينتظرون .

أحمد سويد

دار المعارف

تقدم للعالم الاسلامي والعربي

تفسير الطبري

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

لابي جعفر محمد بن جرير الطبري

حققه وعلق حواشيه الاستاذ محمود محمد شاكر

راجعه وخرّج أحاديثه الشيخ احمد محمد شاكر

أدق طبعه لاصح النسخ في إخراج رائع ستفخر به المكتبة العربية الاسلامية

الجزء الاول وثمنه ١٠ ل . ل .

« الثاني « ١٠ ل . ل .

يصدر الجزء الثالث في شهر حزيران ١٩٥٥

ملتزم التوزيع

دار المعارف بيروت

لصاحبها أ . بدران

بناية العسيلي السور – ص . ب ٢٦٧٦